إلى الخـــير...

للأستاذ ثروت أباظه

... نعم يا سيدى ، لقد رأيتنى أهيم فى الحوالك من الظلمات ، شارداً أضرب فى الحياة وتضرب بى ولا نصير ... أقطع الطريق أو أقف دونه لا يشجعنى على السير صديق أو يحثنى دون الوقوف رفيق ، وأنا مع الحياة لا أبالى أيان يلقى بى موجها ، فكل أفق لى قبلة ، فليس لى فى أى أفق من الآفاق أمل مرتقب ، وحولى الناس كلهم لاه عن غيره إلى نفسه ، فأموت عنهم ؛ ولم يكن لى نفس لأثوب إليها أو أطمح بها ، فكنت أتوثب إلى السماء مرات عسا بين الصباحين فأسأله فى عليائه أن يفسح بينى وبين أحد عباده على الأرض طريقاً :... فإذا طال بى السؤال دون الإجابة ابتهلت إليه أن يضمنى إلى سمائه أرى الرحمة الكبرى من ورائها تلف النقى فى سيبها والعاصيا .

ولم يكن بى عصيان لأوامره ، غير أنى أحسست على الناس النقمة ، وكرهت أن أرى السعيد منهم ، فانصرفت إلى دار الكتب حيث يباح التثقيف بغير أجر ، فظلت أقرأ وأقرأ ، وكنت كلما ازددت قراءة قلت فى نفسى : لو لم تكن هذه الكتب من عمل الإنسان لكانت أعظم مما هى عليه ... وكنت أعجب كيف يستطيع الإنسان الكنود أن يخرج مثل هذا الصفاء ... كتاب لا يملك ، فإذا مللته أنت لم يغضب ، بل يقيم أيان تدعه منتظراً منك المودة ؛ فإذا عدت لاقاك مفتوح الصدر ، صريح العبارة ، لا يخفى عنك شيئاً ؛ وإذا قصر يوما عن إبلاغك مرادك اعتذر إليك وقدم زميلا له يشرح ما غمض فيه .. هكذا يا سيدى عرفت صديقاً على الأرض ، وهكذا كنت أفكر فى شأنه ، فما خاننى ولا خنته ، بل زادنى تجربة وعلما ... وهكذا يا سيدى خلت أن الله قد أجاب به الدعاء وحقق لى الأمل فرحت أكتب إلى الجرائد أستعين بما ترسله من مال زهيد على ما كل يأبى الوصول إلىّ ، أو مسكن ينفر — على رثاثته — أن يضمنى بين حجراته . أما الناس يا سيدى فقد يئست من وجودهم منذ أزمان بعيدة .

وتلك رسالة الشاعر العامل ، إذ يحمل بيده المشعل المضىء فينير السبيل .

وكنت أود أن أتكلم عن الإلياذة كوحدة مستقلة فأعرض لها ببعض التحليل والتشريح ، ولكن القدر قد كتب لها أن تظل فى مهملات وزارة المعارف بجفوة منسية فى عصر مجحف ظالم رسبت الدرر الغالية فى قاعه ، وطفت الجيف المنتنة فوق سطحه ، فطبعت دواوين الشاعرين من المتافين والمصفقين ، وأهملت ملاحم النوابغ الملهمين . ولولا ما قرأته فى المجلات الأدبية والعلمية كالرسالة والثقافة والأزهر من قصائد متناثرة تنتمى إلى إلياذة محرم لظننتها خرافة مختلق مريب !! .

وإذا تعدينا تاريخ محمد إلى غيره من المرسلين فإننا نجد محرماً قد اندفع أيضاً وراء عاطفته الدينية فنظم فى قصص الأنبياء معلقة طويلة ألقاها فى موسم الشعر وقد ابتدأها بقصة آدم وحواء ، وخروجهما من الجنة ، ثم دلف إلى الأنبياء الذين ذكرهم القرآن فروى قصصهم الماضية مبينا جهود كل نبى فى دعوته ، وما قابله به قومه من العناد والاستخفاف ، ثم ما كان فى النهاية من ظهور الحق وخذلان الباطل ، وإن كان هناك فرق شاسع بين حديث الشاعر عن الأنبياء فى ملحمته الجيدة ، وحديثه عن محمد فى إلياذته العامرة ، حيث كان فى الأول مؤرخا يسجل الحوادث كما حكاها القرآن ، وتناقلها الرواة والمفسرون دون أن تقوم شاعريته بتوليد بارع أو ابتكار رائع ؛ ولكنه فى الإلياذة قد جمع بين التاريخ والفن ، فهو مبدع فى الفكرة والعرض معا كما يرسم صورة للزمان والمكان . وقد يهتم بالجزئيات الصغيرة فيصوغها فى لباقة تحمد للناثر المترسل فما ظنك بالمقيد بقافية ووزن !! ذلك توفيق كبير .

رحم الله محرما فقد أسدى إلى العروبة والإسلام يداً بيضاء لم يسلفها شاعر عربى قبله ، ومع ذلك فقد عاش حياته الطويلة فى دمنهور كادحاً متعباً لا يجد الناشر الذى يظهر له ديوانه الرائع فى ثوب لائق بمركزه المرموق ، ثم وافاه الأجل المحتوم فسكت الأدباء عنه فى قسوة ، غافلين عن أدبه الحى وفنه الرفيع ، وكأن به فى حنادس القبر يردد متأوها نائحاً بيته الحزين :

خلقت وفى فمى الأدب المصفى ... وضعت وفى يدى الكنز الثمين

(جزيرة الروضة) **محمد رجب البيومى**

ولم يكن اليأس مريحاً — كما يقولون — فقد ضحيت به برغم صداقة صاحبي، الكتاب .. كذلك ياسيدي كنت حين شاء لك ذوقك الأدبي الرفيع أن تختارني لأعمل لديك على سبيل الدوام فقصدت إليك يائساً من الصداقة والشهرة، آملا في الكسب، ولافيتني يا سيدي فأحببت في خلقاً وسلوكاً، وأحببت فيك كل ما فيك، ولم أجرؤ أن أبين عن هذا الحب خشية أن يتنادى بي ثم تنقطع بيننا الأسباب... خشيت على نفسي ياسيدي، ولكن خلقا فيك كريما أبى إلا أن يشجعني فأحببتك وأحببت الناس فيك ولك .. ووجدت نفسي قد خلقت خلقاً آخر، فلا حقد ولا يأس ولا قنوط؛ ومازلت بي ياسيدي تمد لي من عطفك فأمد لك من حبي حتى وجدتني أقول لك من غير وداع « إنه لرجاء يوم أغبر قطمني عنك فإني والله لن تقوم لي قائمة بعده » ... ولست أنساك يومئذ يا سيدي وأنت تضحك لي في حب كبير ... « إنها أوهام — طالما يتخيل الإنسان أموراً ثم يجسمها فلا تلبث أن يذيبها مرور الأيام » وقلت لك يا سيدي : « إنه لن يكون هناك أيام لتذيبها فسوف أذوب أنا قبل أن تمر هاته الأيام » هكذا يا سيدي بلغ بي الحب فعشت أرصد حياتي لك ولخدمتك حتى نلت لديك ما نلت . وكنت أنت حياتي بعد أن تقطعت بي أسباب الحياة .

وهأنت ذا يا سيدي اليوم تقصيني عن موارد حبك فأخرج إلى الكتاب مرة أخرى وألاقيه فيلاقيني مفتوح الذراعين حانيا، وكنت اقسمت يا سيدي وأنا أعمل بجريدتك ألا أكتب في غيرها أبداً؛ ومازلت يا سيدي باراً بهذا القسم؛ بيد أنني تذكرت اليوم فقط أمراً لم يخطر لي ببال، تذكرت ياسيدي أنك مرهف الحس، دقيق الشعور، وخشيت ياسيدي إذا أنا حطمت حياتي أن تشعر بما جنيته علي، ولا أريدك ياسيدي أن ترجع إلي وأنا حطام لتعينني على حياة أكرهها مادمت أنت بعيداً عنها. فقلت في نفسي: لأعمل حتى لايشعر بما جناه، وحتى يطمئن إلى أنني مازلت أقاوم الحياة. وإني يا سيدي حتى اليوم كلما سألني سائل عن سبب القطيعة خلقت في نفسي عيوبا لا أظنها تجرؤ أن تنتسب إلي وأنا من أحببته أنت حينا من الدهر، ولكني كنت أجور على نفسي حتى لا يجور القوم عليك — فأنا ما زلت أحبك شأني دائما، أما ما قام بنفسك من شك في وفي حبي لك فأنت وحدك الذي ستمحوه حين تستبين حقيقة نفسي مادمت لم تستبنها حتى اليوم، وما دمت يا سيدي تعتقد — رغم كل ما أبنت لك — أنني كنت أداهنك وأداجيك . ولعمري أي فائدة تعود علي من المداهنة والمداجاة وأنا لم أطلب منك يوما مطلبا لنفسي ؟.. أي فائدة وقد أغريت لتركك بالمال فكنت أسب كل من يجرؤ على هذا . أي فائدة !.. اللهم إلا إذا كنت تظنني أمثل لمجرد التمثيل؛ وحينئذ يا سيدي اسمح لي أن أرى في هذا التفكير انحطاطا عما عرفته فيك من ذكاء لماح ... ولكن دعني يا سيدي أقل الحقيقة ... إنك عجبت أن يكون في العالم إخلاص كإخلاصي، واستبعدت أن يحب شخص شخصا مثلما أحببتك، وخشيت أن أكون كاذبا فقلت في ضميرك : لأرح نفسي من عناء البحث والاستقصاء والتحليل، ولأقطع بيني وبينه الصلات قبل أن يفجعني بالخيانة . ولو أنك نظرت إلى ماضي وأنت تعرفه لعلمت أن مكانك من نفسي ليس بالغريب ... لقد كنت يا سيدي بمثابة الواحة التي يجد بها التائه ماء وظلا وعيشا، فهو قائم بها لا يريم ... كنت ياسيدي كذلك في حياتي وما تزال يا سيدي كذلك ولن تزال .

لعلك تعجب لم أكتب إليك كل هذا الكلام ... كتبت لأبين لك عما ينتفض به حسي، ولأطمئنك على قابل من الأيام فلا يملكن عليك العطف شعورك، ولتهدأ بالا ولتثق يا سيدي أني لن أصادق بعدك أحداً حتى لا أجرع فيه مرة أخرى، ولكنني سأعيش، وسأعيش بما أتحته لي من شهرة، فأنالك أيان تاق بي الأيام رحلها، ولكنني أستحلفك ياسيدي ألا تعامل غيري بمثل ما عاملتني ... على أنه لن يتاح لك أن تفعل، فأن أحداً لن يحبك أو يخلص لك كما أحببتك وأخلصت لك — لأن أحداً لم يأت في حياته إجداباً كما لاقيت . والسلام عليك ورحمة الله .

قرأ صاحبي الخطاب وأنا أتابعه مأخوذاً بأسلوبه المترسل عاجباً من إخلاصه المكين ؛ وما انتهى الصديق من القراءة حتى صوبت إليه أتوزل :

— فمن الكاتب ؟

— لقد عرفت شخصيته وما أظنك بحاجة إلى معرفة اسمه.

— ولم أقصيته عن موارد حبك بعد أن أتحتها له ؟ !

— لقد أجاب هو عن هذا السؤال خير إجابة .